كانت انوثتها فجرا:

ايفا هيسه نبوءة النسوية المتمردة في عصر الانشاءات

فاروق يوسف *

[1]

■ منتصف ستينات القرن العشرين ظهرت الفنانة الامريكية من أصل الماني ايفا هيسه (1936 ـ 1970) مثل نبوءة. كانت حياتها الشخصية سلسلة من الهزائم الفاجعة، غير ان ما فعلته في حياتها الفنية القصيرة التي لا تتعدى العشر سنوات قد وضعها الى جانب الفاتحين الكبار الذين جلبوا الى الفن الهام مواد جديدة، من أمثال (يوزف بويز وكلاوس اولدنبوري وبيير مانزوني وجان دوبوفيه). «ليس هناك شيء في حياتي غير مفرط في تطرفه: صحتي الشخصية، وضعي الاقتصادي، عائلتي، حالتي كلها». تقول الفنانة وهي تستعيد شريط حياتها، ماشية بقلق جريء قريبا من الحافات: كان عمرها سنتين حين وضعت مع أختيها في قطار هارب الى هولندا، وحين وصلت الى امريكا برفقة أبويها، القت أمها بنفسها من النافذة لتموت بسبب ما عانته من وحشة المنفى التي سلمتها الى الكآبة، وحين تزوجت من نحات معروف يومها هو توم دويل، اكتشفت أنها أصبحت زوجة الفنان، وهو ما عنى أنها لن تكون ذاتها ابدا، وفي الوقت الذي تخلصت فيه من هذا القيد فقدت أباها، أما حين تحقق لها ما كانت تصبو اليه من حرية في الحياة كما في الفن شخص الأطباء لديها ورما في الدماغ لتموت وهي لا تزال في عمر الرابعة والثلاثين. كانت ترى في تجربة صديقتها الشاعرة سليفيا بلاث (المتزوجة من الشاعر تيد هيوز) نوعا من المرآة التي تشي بخبرة الم مشترك. شبيهتان التقيتا في الدروب التي تؤدي الى ابداع مختلف وموت سريع تسبقه حياة قابلة للعطب بيسر. تقول بصدد نزعتها النسوية المتشددة: «أفضل طريقة لهزيمة التمييز في الفن تتم عن طريق الفن». وهذا ما نجحت هيسه في انجازه بعبقرية فذة.

[2]

حين شرعت في دراسة الفن قادها معلمها جوزيف البيرز الى التقليلية، وهو أحد روادها، فاكتشفت في التقشف المادي ينابيع الهام روحي تثري رؤاها بتدفق يضيق به عالم المرئيات. وهو ما يبقي أعمالها على درجة هائلة من التوتر الجارح، كما لو أن تلك الأعمال لم تكشف بعد عن كل ما تنطوي عليه أجسادها من ألغاز صلبة. وهو ما جعل النقاد ينسبون أعمالها الى ما بعد التقليلية، وهو وصف حذر يضعها ويضع تجربتها في موقع يتماهى مع الغياب، ذلك لان هيسه راهنت على أقل القليل لتستخرج من خلاله ملامح حياة عصيبة خبرت عذاباتها، بالنسبة لها لم يكن الجمال هو الهدف، لقد كانت تتبع ايحاء أعصابها وحيوية شاعريتها. ذات مرة قالت عن أحد اعمالها «لقد ترك منطقة القبح ليدخل في منطقة الجمال، وهذا ما لم اكن ارغب في أن أفعله». هيسه التي وجدت في الوصف سخفا فارقت الصورة بمفهومها التقليدي منذ أن كانت رسامة. اما حين تحولت الى النحت بشكل كلي وذلك بعد عودتها من المانيا عام 1965 (ذهبت الى هناك مع زوجها لتعمل في التصميم في أحد معامل النسيج لمدة سنة) فان عداءها للصورة صار مطلقا، حيث تعمق لديها الاحساس بالتشظي، وبما لا يمكن احتواؤه الا عن طريق التفكير الحدسي به. وهي في ذلك انما تعبر عن خبرة مستلهمة من تجربتين فنيتين تركتا أعمق الأثر فيها: مارسيل دوشامب ولويزا بورجوا. أخذت من الاول فكرته عن الفن الجاهز واستلهمت خيال الثانية في اسطرته الانثوية للأشياء. كانت التقنية التي استعملتها هيسه مزيجا من عالمي دوشامب وبورجوا، هو مزيج يكشف عن مزاج صارم يميل الى الاختزال الجاد، الذي لا يسمح بأي مرح ممكن. انثوية بورجوا الكامنة والمعبر عنها عضويا كانت تثير اعصابها، وهو ما جعلها تتشدد في صفاء مادتها، ذلك الصفاء الذي لا يقبل الشرح أو التأويل الرمزي. لقد كانت فكرة الجمال الذي تصنعه المرأة بالنسبة اليها هي فكرة الجمال المضاد. فلا رموز تحيل الى الأنوثة ولا سلوك يزعم الاختلاف بما يؤكد فلسفة الرجل عن الكائن المسلي بعذوبة. كان لدى هيسه ما تفعله هدما، لتعيد اللغة الى سياقها الانثوي، ولم تكن الأشياء المرئية سوى ذريعة لوصف ما لا يمكن وصفه.

[3]

(فنانة الانشاءات)، هذا اللقب الذي اطلقه بعض النقاد على هيسه، انما يدفع بها في اتجاه مستقبل كان غامضا، حتى بالنسبة لمن ابتكر ذلك اللقب، وهو نبوءة لما يمكن أن ينتهي اليه الفن متأثرا بها. فبعد أن تحررت هيسه من النسيج الذي بدأت به سيرتها النحتية لتتجه الى مواد لا علاقة لها بالنحت كألياف الزجاج والبلاستيك الصمغي صارت الاشكال التي تستخرجها من خزائن الغيب تفارق حضورها الشكلي. تجريديات تتخذ من الجسد والطبيعة مصدرين تعود اليهما عن طريق الايحاء. غير أن الصنيع الفني لديها لم يكن يحافظ على تماسكه العضوي دائما. لقد صارت تميل في نهايات حياتها القصيرة الى صياغة شعورها باقتراب الموت عن طريق دفع عناصر الصنيع الفني الى النفور والتخلي عن أي انسجام ممكن. وبالرغم من لغزيته فان صنيعها الفني لم يكن عاكفا على ذاته، كان هناك دائما ما يدعوه مثل نداء الى التنزه خارج جسده. وهكذا صارت هيسه كمن يجهز فكرة للبناء. صارت تستدعي عناصر متناحرة لتقاوم أية قوة يخيل لها أن في إمكانها أن تكون مصدر انسجام متضاد. في أعمال هيسه الاخيرة عدوانية تتصف بالحميمية، حيث تتصل الأشياء بالكيانات التي تصدر عنها. وهو ما يعيدنا الى النسيج، تلك المادة التي تعلقت بها الفنانة في بداياتها. في انشاءاتها لم تسع هيسه الى اعادة بناء الأشياء، بقدر ما حاولت أن تستدرك معنى الخطأ الذي يقيم في الفراغ. تلك المسافة التي تفصل بين الشيء ومغزاه، وهي ذاتها المسافة التي تفصل بين الانسان وتجربته. خبرة الالم هي كل ما بقي لديها من معنى لحياة عاشتها من أجل أن تؤكد اختلافها. ومثلما وقفت بلاث الشاعرة خارج كل معنى متداول للابداع النسوي، لتكون رمزا لولادة تيار النسوية في تلك السنوات الغاضبة، فان هيسه هي الأخرى صارت رمزا لبحث مستقل عن حرية متوقعة خارج كل سياق محتمل: المجتمع كما الفن.

* شاعر وناقد من العراق يقيم في السويد

ايفا هيسه (القدس العربي)

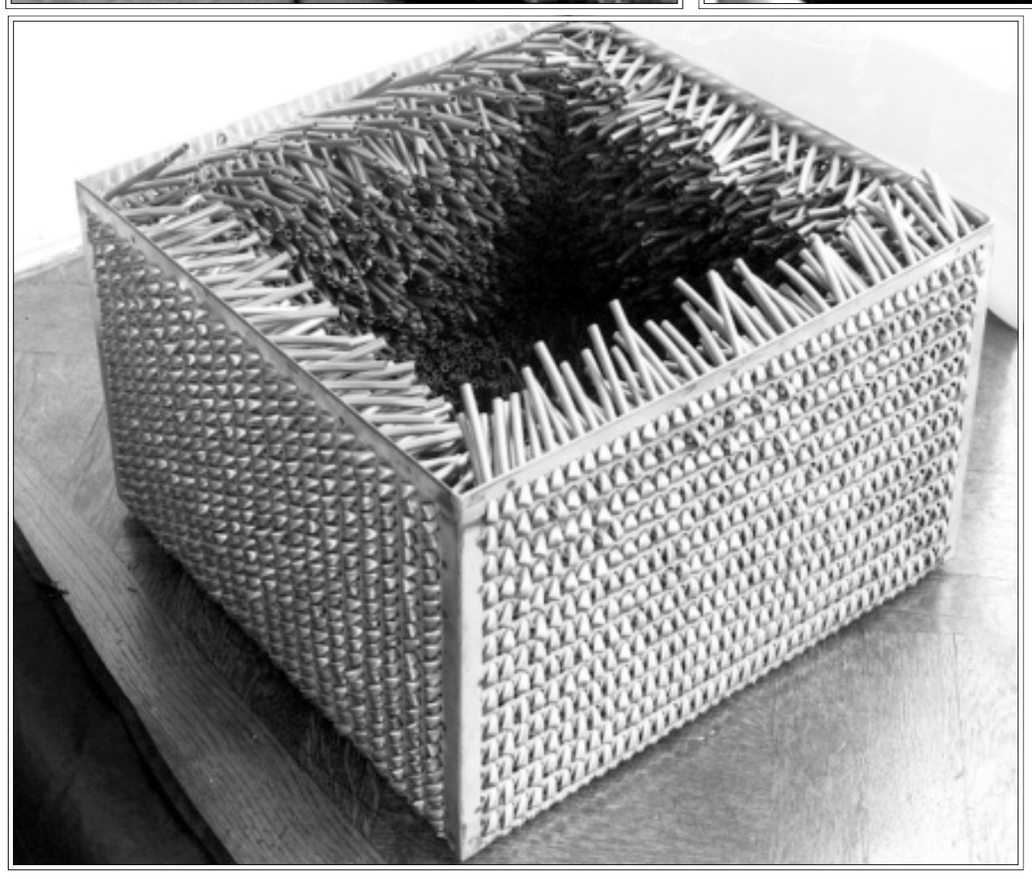

عملان للفنانة (القدس العربي)

تداعيات

وظيفتهم الانتظار

ابراهيم الحجري *

■ أثارني مقال الشاعر أمجد ناصر اذ تناول فيه موضوع الانتظار منذ انتظار بينلوبي ليوليسس الى انتظار عرفات ماراً بماركيز، كونديرا وكفافي

لقد كان أولئك الناس نوعا من حل.

يذكرني استشهاد أمجد ناصر بكفافي هنا باستشهاد ادوارد سعيد في كتاب الأنسنة والديمقراطية بنفس المقطع الأخير من قصيدة كفافي (في انتظار البرابرة) كان ادوارد يستشهد به للتذكير بفائدة وجود الآخر المعادي بالنسبة للبناء العام.

ماذا عن انتظارنا نحن؟

أليست لحظة وفاة الرسول العربي هي فاتحة الانتظار العريض الطويل: انتظار المخلص، أم انه الانتظار الديني؟ انها الورطة اليهودية الأولى. في اليهودية الجميع في انتظار عودة أرض الشعب المختار والملك سليمان، في المسيحية في انتظار ابن الله، في الاسلام نحن أيضاً في انتظار عيسى لينصر دين الله على الكافرين ولو كره المشركون، في انتظار أن يتكلم الشجر والحجر ويقول (هذا يهودي خلفي فاقتله). انه انتظار جميل حقاً: انتظار شبيه بانتظار غودو وعلى الطريق الزراعي أيضاً انه انتظار ما لا يأتي، ما لا يحدث، الفكرة الكبرى نفسها في انتظار يوم الدينونة والدين والقيامة، الجميع في انتظار الله ليعدل بين الجميع ويعلن انتهاء الحياة والعالم الذي نعيش فيه ليقدم لنا في المقابل العالم الآخر.. الجنة الكئيبة (لا عمل) وجهنم المازوشية (لذة التعذيب).

انه الانتظار، في الأنظمة العسكرية يقوم النظام بايهام الشعب بأنه متوجه الى حياة أفضل، يؤمن الشعب وينتظر، وحتى من لا يؤمن بالنظام يؤمن بالمخلّص، نفس الفكرة الدينية تلعب لعبها السياسي هذه المرة، الرئيس يقدم دوماً بوصفه المخلّص، لكن على الجميع الانتظار وعدم الاستعجال، ففي التأني السلامة وفي العجلة الندامة، ذاك مثل لا علاقة له بعصر السرعة، إنها ليست سرعة بل انتظارا.

الناس في انتظار الحل القادم، فلسطينيون في انتظار انتهاء الاحتلال والعودة للحياة الطبيعية، عراقيون في انتظار الهدوء والعودة، لبنانيون في انتظار الوفاق والعودة، في المغرب العربي في انتظار تحسن الأحوال والعودة، في الجزيرة العربية في انتظار اكتمال بناء الدولة العصرية، أو أنهم جميعهم في انتظار موت الرئيس.

هل يعيش العربي في انتظار الموت، الصغير ينتظر يكبر: موت الصغر، الشاب ينتظر العمل: موت البطالة، الرجل والمرأة ينتظران الزواج والانجاب: موت العزوبية، الوالدان ينتظران أن يكبر الصغار: موت الطفولة، الكبار في انتظار الموت : موت الجميع.

ربما كان الموت نوعا من حل..

نستغرب في وطننا العربي من أي معاملة يتم انجازها مباشرة نحن متعودون على الانتظار، لا شيء مستعجلا أو عاجلا، أبداً انه الحل بالتأكيد، الموت هو الحل، الانتظار الكبير، السلطات تنتظر الموت والأمة تنتظر الموت، تقوم تتنفس قليلاً ثم تتذكر أنها في انتظار الموت (المخلّص) فتعود لوقار الانتظار، شعوب بأكملها تراهن على وفاة الرئيس لتصير الأوضاع أفضل، لكن لا أفضل بل هم يحزنون.

انتظر.. لحظات. سآتي، سيأتي، سيتغير الحال، ولو كانت الدنيا تدوم لواحد لكان رسول الله فيها مخلدا، أليس المتنبي هذا (فالموت آت والنفوس نفائس والمستعز بما لديه الأحمق) برأ المتنبي ساحته بأن النفوس نفائس لكن اللغة والثقافة متورطتان في الانتظار، في مستنقع الانتظار، كم حقبة لزمت الطبيعة لتصل الى الانسان فاذا به بعد أن وصلَت اليه ينتظر.. موته!!

نظر وانتظر، انه يرى عبر الانتظار كل الحياة ترى من خلال الانتظار، انه المنظار، (نظر وفكر ثم قتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر..) الوليد بن المغيرة ينتقم من الثقافة وتوابعها، انظروا انتظروا، نظر نظرة في النجوم. . فقال اني سقيم.

انتظار يأتي قبله موتك ذاك هو الانتظار.

مرت الفترات السياسية المختلفة والجميع هنا ينتظر، أينما كانوا ينتظرون، فكل الأبطال الذين وصلوا الى الآن خانوا المسيرة ولم يكملوها، هكذا نحن في انتظار العالم الجديد، أو الاشتراكية الجديدة، أو الشرق الأوسط الجديد، الجديد، الجديد : الكل ينتظر الجديد من الاقتصاد الى الأدب، الأمل في الجديد، سيتزاحم الناس في بلد الانتظار لرؤية الجديد ، ما الجديد؟

عيش في بلاد الانتظار بامتياز، هنا حيث الوقت لا معنى له، العمر لا قيمة له، ان حساب الزمن خارج الوعي، الزمن الذي يقاس به الانتظار هو ذاته في الانتظار، العاشق ينتظر معشوقته بلهفة لكنها لا تأتي ولن تأتي لكنه ينتظر، رغم شكه في قدومها لكنه لا يبارح الانتظار، انه الأمل عندما يكون مفسدة، الأمل يجعل الانتظار طويلاً،الحلم عندما يفسد الوقت، الوقت فاسد انه انتظار ولا شيء غيره.

الانتظار وهم الحياة، بطء اتخاذ القرار عادة عربية بامتياز، تنعقد القمم العاجلة بعد أسبوعين من وقوع سبب القمة العاجل، لا نزال نطبخ على الحطب، تعاملنا مع الغاز خطر، قد نقتل أنفسنا اذا استعجلنا أو ندمر العالم.

الانتظار بوصفه حلاً لكل المشاكل، الولد جائع ننتظره لينام وينسى، ننتظر أي أن نضحي بالوقت، الوقت مقابل ما يصل، الولد المشاغب ننتظره يكبر ويهدأ، الجميع يهدأ الكل سيهدأ حتماً كل ثورة مجرد فورة ستهدأ واذا لم تهدأ فخفف النار قليلاً تحتها ثم أشعلها من جديد واذا فارت خفف وهكذا في النهاية لن يكون هناك ماءٌ لتفور من جديد انتهى الماء: ماء الوجه.

الوضع المتأزم يلزمه الانتظار ليهدأ، الفقر يحتاج صبراً لينتهي، الانتظار يتحول الى عادة، المسافر الذي ينتظر يتحول الى مقيم.. حتى في جهنم ـ الحمراء ان كان هناك بيضاء ـ، الانتظار أكبر مفسدة، التلفزيون يهوِّن الانتظار. مدمنو تلفزيون، يرحل الوقت، العمل التافه أيضاً، يورطك حتى تجد نفسك تعودت، صار الانتظار عادة لا تستطيع التخلي عنها.

مدمنو انتظار.

المنفيون ينتظرون.

ان اكبر حدث في الحياة وهو ولادة طفل جديد لهذا العالم لا يأخذ أكثر من تسعة أشهر، ما بال العرب ينتظرون مولودا منذ مئات الأعوام، انتبهوا فقد يكون حملكم كاذباً.

في النهاية وفي الملل من الانتظار والتعب، تلعب اللعبة النفسية لعبتها على الأقل يمكننا التصديق أن للاوعي دوراً هنا، ان المشكلة ترحل الى اللاوعي اذن فهي غير موجودة وهكذا: لا يتكلم أحد عن المشكلة لأنه ما من مشكلة أبداً، أيّ مشكلة؟!

يا للسخافة التامة عندما تنتظر كل هذه الجموع مخلصاً جديداً، مرة أخرى، انهم يطلبون من السماء أن ترسل لهم مخلصاً جديداً، لكن السماء لا تفقه اللغة الصينية كما يقول الفيلسوف الصيني.

في اللحظة التي خرج فيها ابن لادن من العدم زمرت الشعوب وطبلت لقد اعتقدت فيه مخلصاً مرسلا من السماء وأنه سينتصر، هكذا يصبح صدام حسين بطلاً قومياً مرة وديكتاتوراً مرة أخرى وهكذا الجميع، انه عدم التمييز الذي يطبع المنتظر، الرجل القادم هو الذي أنتظره.. لا ليس هو، آه ها هي أتت، لا ليست هي وهكذا حتى تختلط الأمور كلها وينعدم التمييز وتذهب الحساسية ويذهب العمر مع الحساسية الذاهبة.

الرئيس ريغان ذهب هل كان أحد ما ينتظر ذهابه في هذا العالم، حسنا لقد ذهب الرجل يا أيها الرجال هل تنتظرون شيئاً آخر؟

أما من أحدٍ يلغي هذه الوظيفة كما ألغى سركون بولص وظيفة الجلاد؟

هدوءا لا ترفعوا أصواتكم انهم ينتظرون أمراً مهماً....

* شاعر من عُمان

في مرتبع الطمأنينة

عزيز الحاكم*

لاتبدأ المتاعب
بالنوم على قارعة الوجود
ولا تنتهي
على متن قطار ذاهب
إلى «برثلونة»

أوحافلة معطوبة
في كوابيس الوجهاء
الكرب العنيد ينمو
في حضن امرأة
مفتونة بالكوارث الودود
والكأس الأولى
لاتحتسى بالفم الكريه
إلاعلى ضفة بحيرة أصيلية
تستوطنها الفضائح الناهدة
فور وصول الحنان المشؤوم
وريح الصبا خلفها
تغزو خصور المجدليات
في منتدى
قيل لي على سبيل البهتان
هوذا قدرك
ولوكنت أعلم أن الدهاة آتون
لأسدلت الستائر
عن هذا المأتم الرفيه
وضاجعت الربيلات بلا حصر
فوق هذي البسيطة المشلولة
وأرحتني من ندمي.

أقول لمن باع الوفاء الأبكم

في زقاق البنفسج
بقروش النزوة القاحلة:
حظك أوفر من لعنة الطيبين
وأقسى من ذنوب الحكماء
ولسانك الأغبر
يانع للقطاف السريع
تمهل إذن
ولاتنهش اللحظة قبل الأوان
سيكون لبحرك لون الضنك
ولصيفك المسروق
طعم النفايات
وبألف هشيم سوف تصلى
يوم لاينطلي رشدك الباهت
على فطنة الصباحات القصراوية
وتستاء من ضحكاتك الشوهاء
أميرة الجلسات الشهية
وأقول لمن شاء النسرين
أن يستأنس ببهائها:
لك العمر كله
وبعضا من شهيق الذكريات
لك ما تبقى من صحوة «باخوس»
ودموع يوليوز
فلتشربيني دفعة واحدة.

وأقول لليل الأبيض:
لست طائر الأوكار الشفيفة
ولا ثعلبان الزمان
أنا شوكة في حلق العاصفة
أستعين بالفراغ الثخين
على نجر البلاء
وإطعام السحرة
من عصير الهواء المعلب
وتعليب الآمال
في أنأى العواصم
وأصفى اللحظات.
ثم أعود إلى باب الحكمة
محفوفا بطيور «العطار»
كي لا أزعج الكون.

أحفر للخلان
مدافن زاهية
حتى يدركوا رفعة أحوالي
ويسقطوا تباعا
من علياء بالي
وأنفخ في رحم الحيرة
جسدا مسربلا بالأغانيج
وامرأة لا اسملها
من "هند" و"ياسمين"
ومكارم أخرى
وأنشوطة أحلام سريعة
وهفهفة الندى
وانتشاب المواريث
والتحاف الشبهات
وانسياب العتمات
واصطياد رؤوس الحمقى
واقتلاع الدهشة
من عيون العواتق
وتلوين الفرح الأسود
بثرثرة النائمات
على صدر الإفلاس
والإصغاء البارع
إلى ضجيج الموتى
وارتشاف الأكاذيب
من شفاه الأسطورة
وانتشال الدرر الشعرية
من أقرب الأصدقاء
والنقر الخافت على بوابة العدم
كشحاذ زائف
يستعير ظلاله
من قصور اليتامى
ويبكي في أول المساء
على أم لم تلده
وبلاد هشمت أسنانه
بسحر الأرامل المنذورات
لزنا المحارم.

لابأس يا "هولدرلين"
من أن تغيم شموسنا
في "فرنكفورت" أو في "فاس"
وترفرف البيارق الذابلة
في ربيع مختون
برياء العبيد البيض
وتضيق "البطحاء"
بصفير البرابرة الزرق
وتعاليم المعوقين.

ولك الآن فقط

أيها الأعمى النبيل
أن تدلني
على "قوس قزح"
في خلسة خاطفة
كي نتأسى معا
برضاب المخمورات
بنباهتنا المؤجلة
ونعمد أيادينا
المثقوبة
بماء اللذة الفادحة
ولك كما لا يليق
بغيرنا
أن تلعثم أفكارك
في حضرة الوشاة
وأن تسمل عيون
الوقت
بألف ارتياح
وتمضي على غير ما شيء
لك
حافي الذهن
إلى برجك الخامس
محروسا بمناسر
الصمت
مثل بطريق مهيب
يهزأ بالبداهة
ويناجي
أحلامه
في ملتبس
الطريق
ولي أنا أيضا
أن أمكث ها هنا
على مقربة
من مغيب العزلة
متربصا بشآبيب الغبطة
في مرتبع لا يقطنه سواي.

* شاعر من المغرب